

كمال قرور

خواطر الحمار النوميدي..

ENAG
EDITIONS

01 14 41 / 07

الإيداع القانوني : 2007 – 4326

ردمك : 8 – 681 – 62 – 9961 – 978

كمال قرور

خواطر الحمار النوميدي..



موفم للنشر

الإهداء

إلى الحمار الذهبي لأبوليوس

إلى حمار توفيق الحكيم

إلى حمار رضا حوحو .

إلى حمار الكونتيسة دي سيغور

إلى حمار خوان رامون خمينث

إلى حمار محمد زتيلي

إلى جحش عمر البرناوي

وإلى كل الأحمرة الأصيلة

في كل مكان وزمان .

بيان كشف الغمة

في البدء كان الحمار.. وكان الفعل/ العمل والكد والجد والتعب والتضحية.. وإنكار الذات والتفاني في الخدمة في صمت.. وكان الآخر "البشري-الآدمي" الأناني متسلطا.. متجبرا.. متفرعنا.. مثرثرا.. هاضما للحقوق.. ناكرا للجميل والخير.. يجني الغلة ويسب الملة..

وعلى الرغم من هذا لست أدري لماذا كان صوت التحمير في مجتمع "البشر".. تهمة، ونقمة ولعنة تطارد سلالة "الهوير" أينما كانوا..؟ بينما لا أحد إلتفت إلى العمل، إلى الواجب المقدس الذي تقوم به هذه الكائنات "الحميرية" من أجل سعادة الآخر، غير آبهة بالحقوق المهضومة.. لماذا لم يشفق أحد من ذرية آدم على هذه الحيوانات ويتعاطف معها ويحاول أن يفهمها ويدافع عنها أمام جبروت هذا الإنسان

الأناني الجبار الطاغية وحاول أن يترجم أصواتها إلى لغة البشر الذين كرمهم الله تعالى أحسن تكريم ..؟ ليعلم الجميع أن تلك الأصوات المنكرة ما هي إلا تأوهات وشكوى من ظلم بني الإنسان..

أستسمحكم أيها السادة البشر إن أنا تطاولت بعض الشيء على جنسكم، لأني أفور من شدة الغضب و"الزعاف" لأنكم أفسدتم "مجتمع الحمير" وهدمتم حضارتهم التي تقوم على العمل ثم العمل والتفاني في إتقانه.. وحان الوقت لتعرفوا مدى فداحة وفظاعة الجرم العظيم المقترف من قبلكم في حق هذا المخلوق الناكر لذاته، المتفاني في خدمتكم .. والذي لم يخلق الله له صوتا جميلا، مثلما خلق له ظهرا وثيرا يتنعم عليه كل من هب ودب.

- هذه سادتي حكايتي..

وهي ليست من حكايات ألف ليلة وليلة، وإنما هي ليال مغمورة مطموسة في التاريخ البشري لم يرويها أي

مؤرخ من مؤرخيكم-مثل الطبري أو ابن الأثير أوالمسعودي أو ابن خلدون أو عبد الرحمن الجيلالي ، ولم تلتفت إليها شهرزاد نفسها، ربما لم تشأ "المغبونة" أن تقلق بها راحة السلطان شهريار العظيم.. ....

رجاء لا تضحكوا عند سماع حكايتي.. لأن كثرة الضحك تميت القلب.. ولا تصفقوا.. لأني أمقت التصفيق لما يحمله من نفاق ورياء وتملق في مجتمعكم.. ولا تسخروا مني.. لأن العمود الذي تحتقره قد يعميك.. اسمعوا فقط وعوا.. وأحكموا..

أنا مجرد حمار بسيط ومتواضع لاحول ولا قوة لي، تشبعت بقيم وعادات آبائي الأوفياء الذين يؤدون واجبهم في صمت ولا ينتظرون شكر أحد.. ولا ينتظرون مدح أحد.. أعمل في صمت ولا أحب المدح ولا أحتقر الآخرين.. وأعطي كل ذي حق حقه..

وتعلمت أن أعمل أكثر مما أتكلم.. وأقوم بواجبي على أحسن ما يرام وأتحمل كل ما هو فوق طاقتي

ولا أبكي ولا أشتكي ولا أتكاسل ولا أهرب من عمل أُوكِلَ إلي. .ولا أتقاعس ولا أتمارض ولا أطلب شيئا ما من أحد لم يقدمه لي، ولا أرفض أي شيء دون تبرير ولا أطمح للحصول على إجازة أو عطلة مرضية.. ولا أحلم بترقية مشبوهة أو بمكانة مغشوشة.. ولكن على الرغم من ذلك، فإني "حمار زعباط" حينما تمس كرامتي وكبريائي وشخصيتي فإني أركل برجلي كل من تسوّل له نفسه باحتقاري والإساءة إلى بني جلدتي..

منذ نعومة أظافري تشربت مبادئ أجدادي الأصيلة وحبهم للعمل والتفاني في خدمة الآخرين "خدام الرجال سيدهم" ولذلك لم تكن تضايقني اتهامات أبناء آدم المتخاذلين المتكاسلين الذين لا يكفون عن ترديد عبارات: "الدمير للحمير" و"يخدم كي البهيم" . .فإذا كانت صيغة الذم هذه تخرج من أفواه ناكري الجميل/ البشر فإنها تعد في مجتمعنا صيغة مدح لا غبار عليها.. وكم نشعر بالسعادة عندما يطلقون علينا هذه الصفة، صفة "الدمير"، لأن العمل بالنسبة إلينا مقدس وهو شيمة من

شيمنا.. وعندما تعمل فأنت تقدم للآخرين فائدة أو خدمة سَمِّها كما شئت، وخدمتك تساهم في الحركة والبركة.. وتوفر الراحة للآخرين والمفروض أن يساهموا هم أيضا في خدمة بعضهم، بالملكات الكثيرة التي فضلهم علينا رب الكائنات وكرمهم بها..

اللامنتمي

ولهذا سادتي البشر:

لم أناضل أنا الحمار بن الحمار في أي حزب من الأحزاب التي أنشأها الحمير المهجن اقتداء بأسيادهم البشر لتسيير شؤونهم وتحقيق مآربهم، وليست لي بطاقة عضوية تثبت انتمائي إلى أي حزب من الأحزاب سواء اليمينية أو اليسارية.. ولم أنخرط في أي منظمة من المنظمات.. وأنا لست محاربا، ولا أحمل بطاقة محارب، بمعنى أني لم أشارك في أي حرب من حروب أو ثورة من الثورات التي اندلعت عبر الأزمنة الغابرة، لأني لما ولدت لم تكن هناك حروب أو ثورات، وبالتالي ليس لي ذنب لأني لم أكن محاربا..

هكذا أصبحت أنا الحمار ابن الحمار محاصرا، محروما من كل شيء، ليس لي حق في الماضي القريب والبعيد، وليست لي بطاقة من جهة من الجهات المالكة للماضي المجيد تضع عليها صورتي وتختمها بختمها لاستظهارها عند الحاجة فأخترق الحواجز والعقبات.. وأجتنب الطوابير..

وبعد أن حددت موقفي من الجهات المالكة و المحتكرة للماضي التليد والمهيمنة عليه والمتصرفة في شؤونه والتي تقسم بركاته بغير العدل بين الأفراد.. سارعت لتحديد موقفي من الجهات المالكة والمحتكرة، للحاضر والمهيمنة عليه والمتصرفة في شؤونه والتي تقسمه بغير العدل بين الأفراد..

ولهذا رفضت رفضا قاطعا أن أنخرط في منظمة أشباه وبقايا العمال، الذين يقضون أوقاتهم في النوم أو حل الكلمات المتقاطعة أو في المراحيض أو في العطل المرضية.. وهذا لا يعني أني ضد العمل والعمال، لأن العمل في مجتمع الحمير هو قبل أن يكون وظيفة يأتي من

ورائها الأجر والشكر، هو قيمة روحية تحفظ للحمار توازنه النفسي ومكانته الاجتماعية.. وأنا لست ضد النقابة من حيث المبدأ ولكني ضد تصرفات وسلوكات النقابيين أنفسهم ..

ولهذا السبب رفضت أن أكون عضوا في اتحاد الشباب.. ما معنى أن تكون شابا يافعا تتوقد حركة ونشاطا ومبادرة ولن يسمح لك بالمبادرة، والمغامرة.. كل شيء مسطر ومحدد من قبل جماعات "الغيب"، وما عليك سوى التنفيذ، ولن تستطيع أن تنفذ غير الأوهام والدجل، بينما لا تجد أحلامك وطموحاتك ضمن البرامج المسطرة بالقلم والمسطرة، ما معنى أن تتحول وأنت القادر إلى آلة.. أو "روبو".. أو مومياء محنطة.؟ ما معنى أن تتحول إلى لعبة في أيدي عجائز القاراقوز.. يتآمرون عليك حينا ويستغلونك ورقة رابحة في كل المناسبات.. والانتخابات.. وتتحول بقدرة قادر إلى رقم/ معجزة يحل كل المعادلات.. يتحدثون عن تشغيل الشباب وهم يسنون قوانين تطيل من عمر المتآكلين من "الشياب"، ويغيرون الدساتير كما يغيرون جواربهم وأحذيتهم..

أنا الحمار ابن الحمار صاحب النسب العريق وصاحب الأصول والفضول.. ألا يحق لي العيش بعيدا عن التكتلات والانتماءات المشبوهة وأبدي برأيي ويسمعني الجميع ويناقشون رأيي فإن أصبت أيدوني وإن أخطأت صوّبوني.. ألا أستحق الكرامة والمجد بعملي وعرقي وكدي.. بعيدا عن مالكي الماضي ومحتكري الحاضر ألا يحق لي أن أكون محترما بجهدي وبعرقي وبقلقي وبخبرتي وإجتهادي.. لست أصوليا أو استئصاليا إنما أنا حمار معتدل المزاج والنهيق.. أكره التطرّف.. وأقبل كل الآراء والأيديولوجيات وأناقشها بحب.. ولا أقصي أحدا في جمهورية الحمير

وأنا من أنصار الانفتاح على الآخر والاستفادة من خبرته المعرفية والتكنولوجية وأنا من المؤيدين لدخول "البارابول" إلى "إسطبلات الهوْير" لأنها كشفت لهم حقيقة وضعهم المزري في حين كانت فئة من البشر تدعي أن البارابول يفسد عقول الحمير لأنهم لا يفكرون إلا في "الليبيدو".. وهذا باطل الأباطيل وبهتان الأقاويل،

إذ تعالى البارابول عن ذلك لأن فوائده الكثيرة تغنيه عن هذا الهراء والافتراء وإنما الذين يقفون في وجه التكنولوجيا والمعلومات هم أولئك "الرديئون" الذين يخافون على مصالحهم وسلطتهم الزائفة ..

سادتي الأعزاء:

لهذا حملت نفسي وحزمت أفكاري في رسالة عصماء، وتوجهت مباشرة إلى قصر حاكم البلد لأشكو له همومي وأقنعه بأفكاري، باعتباري مواطنا في بلد جمهوري يعدّ المواطن أحد ركائز الجمهورية ولم أكن أتصور أنا المواطن الضعيف الذي يحمل قانون الجمهورية في رأسه أن الرحلة ستكون شاقة وعسيرة وتدوم شهورا بل سنوات، وتشبه الرحلات الخيالية. وعندما وصلت إلى القصر وعرف الحراس هدف الزيارة تغامزوا عليّ فيما بينهم وعرضوني على طبيب نفساني ولمّا تأكدوا من سلامة عقلي، طلبوا مني أن أحترم السلم الإداري للجمهورية وأعود إلى شيخ البلدية ليمضي لي وثيقة الشفاعة لمقابلة الحاكم..

السيد "المير"

لما قصدت البلدية كنت أظن العملية سهلة، ولن تتطلب إلا بعض الدقائق لأحصل على وثيقة الشفاعة ممضاة من طرف شيخ البلدية.. ولكني كنت أسمع عن "الشواش" الذين يضعونهم على الأبواب "لنش الغاشي" كما ينش الذباب وغالبا يكونون من ذوي السن المتقدمة المحنكين بالتجربة والصبر على الشدائد ومطالب المواطنين المتكررة .. وفوجئت بادئ الأمر لمّا قابلني شاب بوجهه المكفهر الغاضب وأخبرني أنه "الشاوش" فاختلطت عليّ الأمور..

قال : واش تحوس يا حمار..

قلت له متبسما: أريد مقابلة شيخ البلدية من فضلك..

قال: ومن تكون سيادتك أيها البهيم ؟

قلت: مواطن..

فضحك ضحكة ساخرة وقال: حمار مواطن ولا تعرف قوانين الوطن،، يالك من مغفل..

قلت: والله، أنا أعرف القوانين جيدا، ولست هنا لأسمع محاضرة في القانون.. وما دام المسؤول في هذا المكان ، فالفضل يعود إلى المواطنين المنتخبين الذين زكّوه، ومن اللباقة والكياسة أن لا يتنكر هذا المسؤول لهم ويقلب «الفيستة».

قال الشاوش: يبدو من خلال لغتك الفصحى السليمة أنك حمار مشرقي، هل أنت من الحجاز أم من الشام أيها الحمار؟ أم تراك مصري ؟ قلت: أنا حمار نوميدي .. ثم ما دخلك..؟ هل أنت شاوش أم مخبر أم جمركي ؟.. ثم متى كانت اللغة الفصحى حكرا على أهل الحجاز والشام أولم تقرأ خطبة القائد البربري طارق بن زياد العصماء التي ألقاها بعد أن وطئت قدماه جنة الأندلس.. ألم تقرأ مقدمة ابن خلدون وتاريخه؟

قال: الزم حدودك من فضلك.. أنا إطار جامعي تخصصي علمي، ولا أعرف من تتحدث عنهم، بعد أن درست النظريات العلمية وارتفعت بها إلى السماء رماني حظي السيئ إلى هذا المكان وأقبض راتبي في إطار"الشبكة الاجتماعية" الوضيعة.. وانصرفْ، لأن يوم الاستقبال هو يوم الأحد فقط من التاسعة إلى منتصف النهار وبموعد مسبق مع تحديد المشكل مسبقا..

انصرفت وعدت يوم الأحد فوجدت طابورا طويلا.. صبرت وكنت من المحظوظين بعد أن افترشت الليلة كاملة الكارتون من أجل أن أكون من الأوائل في الغد.. كان مكتب السيد "المير" فخما مكيفا مؤثثا أحسن تأثيث وبقربه جهاز تلفزيون من الحجم الكبير.. ووراءه صورة ضخمة للحاكم وعلى مكتبه جهاز إعلام آلي آخر طراز.. وبالقرب منه سكرتيرة بـ «الميكروجيب» وفي أبهى زينتها وتعطرها وكأنها في حفلة خاصة.. ولأنه يحب إبهار المواطنين قال مرحبا: تفضل أيها الحمار..نحن في الخدمة وكما ترى فأنا أتدرب على تكنولوجيا الاتصال الحديث حتى نواكب العصر..

قلت : شيء رائع يا سيادة المير أن يواكب الإنسان عصره .. ولما عرف قصتي قال لي: لا بد من إحضار ملف كامل من مائة وثيقة مصورة في عشر نسخ .. وبعد جهد كبير أحضرت له كل الوثائق المطلوبة مصورة..

استقبلني كالعادة بوجه بشوش وكان مكتبه يفوح عطرا ويغري بأشياء كثيرة..

قال: لقد وصل أخيرا فاكس من ديوان الحاكم، ويبدو أنه تأخر في الطريق. أنت تعرف زحمة المواصلات.. وبينما تكفل فريق من عمال البلدية بدراسة الوثائق، وجدوا كل شيء على ما يرام، وظننت أن المشكلة حُلّت، ولكني فوجئت به يخرج لي ورقة انتخابي من درجه ويقول لي متبسما: لقد انتخبت ولم تمتنع عن الانتخاب كما امتنع بعض أعداء الديمقراطية عن هذا الواجب المقدس، ولكنك لم تنتخب على شخصي وانتخبت على منافسي، وهذا يعني أني لم أعجبك، ومادمت صوت ضدي فإنك صوت ضد الوطن وضد الجمهورية، وهذا يعني أنك لا تعرف مصلحتك، ومازلت غير ناضج. قلت: الانتخاب

فعل حر وإرادي.. وأنا لم أنتخب على شخص، وإنما انتخبت على برنامج مقترح في الحملة الانتخابية.. وما دام الاقتراع يقتضي السرية، فلست أدري كيف تسمحون لأنفسكم بالتجسس على أصوات الناخبين..

قال : لا تتعجب إذا أخبرتك أن الصناديق التي تنتخبون فيها متطورة جدا وتستطيع أن تكشف لمن الصوت وبواسطتها يمكن أن ندرس اتجاهات المواطنين وميولاتهم، .وذلك لفهمهم وفهم ما يريدون، لتجنب الأخطاء في الانتخابات القادمة، وكما ترى فالعملية ليست تجسسية كما تبادر إلى ذهنك في الوهلة الأولى بقدر ما هي طريقة عملية بحتة للتنبؤ والحيطة من أجل تحقيق سياسة الوقاية خير من العلاج..

قلت: سيدي أنا ليس لي خلاف معكم وإنما مع برنامجكم وليس معنى هذا أني أكرهكم أو لي موقف منكم ومن شخصكم، ولست ضد برنامجكم لأنه سيئ أو تافه، إنما وقته من وجهة نظري لم يحن، ولابد أن نبدأ بالأولويات شيئا فشيئا حتى نصل إلى الكماليات..

وبدت الفرحة على ملامح المير وهو يسمع كلامي، ولكنه سرعان ما قطب حاجبيه وقال: على الرغم من ذلك، فالغلطة تبقى سوداء في ملفك وهذا لا يسمح لي بإمضاء وثيقة الشفاعة لمقابلة الحاكم وإلا تعرضت للتوبيخ.. وعندي مشكلة عويصة إذا استطعت أن تحلها ويقبلها المواطنون المتجمهرون الآن في الخارج أمضيت لك الوثيقة وتركتك تذهب لحالك..

قلت: تفضل إني في الاستماع .. قال: 100 مسكنا جاهزا للتوزيع منذ سنوات و5000 آلاف طلب تنتظر أن يكون الحظ حليفها هذه المرة..كل الطرق التي استعملناها رفضها المواطنون، وطالبوا بإعادة التوزيع وهاهم يعتصمون أمام باب البلدية غاضبين حانقين وإذا لم نستطع تطويق المشكل بحل يرضي الجميع، فإنّ العاقبة لن تكون محمودة هذه المرة.. قلت: مادامت الدنيا أصبحت كلها حظوظا.. وأصبح المواطن يؤمن بالحظ أكثر من أي شيء آخر.. لماذا لا نحتكم إلى الحظ في توزيع السكنات..

قال متعجبا: كيف لم أفهم..؟

قلت: إنكم تلجأون كل سنة إلى القرعة لاختيار الحجاج الذين يذهبون إلى الحج..

قال: نعم

قلت: مادام الأمر كذلك لماذا لا نلجأ إلى هذا الحل لقطع ألسنة القيل والقال وكثرة السؤال..

قال: إنها فكرة جيدة وستحل المشكل بالتأكيد.. ولكن إذا أردت أن تنال وثيقة الشفاعة رجاء لا تكشف للصحافة بأنك من أوحى بهذه الفكرة الجهنمية التي ستنقذ البلدية من أي عنف محتمل.. وسأتبنى الفكرة وأقترحها على المسؤولين ودون شك سيرحبون بها ويعملون بها لحل مشاكل البلديات المشلولة.. وبكل تأكيد ستكون هذه الفكرة طريقا معبدا للترقية التي طالما انتظرتها..

قلت: أعدك بحفظ الميم..

وفي تلك اللحظة خرج المير إلى شرفة البلدية.. فقابلته الجموع الغفيرة مهللة بصوت واحد:

"ليسقط المسؤولون الخونة.. ليسقط المتآمرون.. ليسقط مزورو الصناديق"..

وحاول المير بصعوبة تهدئتهم ثم شرح لهم الخطة الجديدة لتوزيع السكنات، فصمت الجميع، ولم يبد أحد منهم معارضته. وبعد الانتهاء من شرح الخطة ، صاح الجميع:

فلنحتكم إلى الحظ.. القرعة.. القرعة..

- واستدعى الصحافة ..فتمت القرعة أمام أنظار مواطني البلدية وأنظار أبناء الوطن وتابع العالم كله التجربة الفريدة حيث أوقفت كل البرامج بثها لتنقل عملية القرعة مباشرة..وكانت قناة «الجزيرة» حاضرة بمراسلها تيسير علوني.

ونجحت الفكرة.. وهلل الجميع:

يحيا المير المنتخب يحيا المير ابن الشعب.. هكذا المير يجب أن يكون أو لا يكون..وتذكرت حينها قول البشير: ?هكذا كونوا أو لا تكونوا" . وانتشت ذاكرتي في ذاك الجوّ الاستثنائي بقول الشّاعر المغوار:

فكونوا حائطا لا صدع فيه

وصفّا لا يرقّعه الكسالى

وبعد أن قبض ثمن فكرتي التي أنقذته من غضب الجماهير المتظاهرة، برّ بوعده وأمضى تصريح الشفاعة، وبينما كنت أهب خارجا مسرورا ناداني قائلا:

عفوا أيها الحمار .. المشوار مازال طويلا .. أمامك مكتب السيد "الكوميسار" .. كن صبورا .. هذه هي تقاليد الإدارة ..

في قسم البوليس

توجهت فورا إلى مركز الأمن، فبادرني الشرطي الواقف بالباب: صحيح، الذين قالوا إنّ الحمار آخر من يعلم ويفهم لم يخطئوا.. قلت: ماذا تقصد أيها الشرطي المحترم.. إنك تجتر كلام أبناء جلدتك وأنا ليس لي الوقت لسماع تفاهاتك.. قال: إذا جئت أيها الحمار تقدم بلاغا أو شكوى ضد أي مسؤول، فالأفضل لك أن تعود من حيث أتيت، ووفّرْ على نفسكِ البهدلة. وإذا كان خصمك حمارا مثلك فمن الأفضل لك أن تذهب وتتصالح معه وتسامحه ونمْ هادئا مطمئن البال، وإذا لم تستطع فوكّل أمورك إلى الله وهو يأخذ لكِ حقك يوم يقوم الحساب..

حكيت له غرض الزيارة فقال: وكأنك جئت من المريخ لقد اخترت يوما غير مناسب.. أليس لك مشكل سكن مثل بقية مواطني البلدية..؟

قلت: عفوا سيدي.. أنا ابن البلدية ومشاكلي كثيرة ولكن لكل مقام مقال..

قال: للأسف.. السيد الكوميسار مشغول اليوم في عملية القرعة لتوزيع السكنات وهو يشرف بنفسه على حفظ الأمن حتى لا تحدث أحداث شغب قد تتطور إلى أعمال منظمة ومسلحة.. يطير منصبه معها.. وأنا بدوري كنت أتابع الحدث على الشاشة وكنت أتمنى أن تحل المشكلة التي وجدها المير وترضي المواطنين بدل اللجوء إلى العنف ويساق إلى المخفر بعض المواطنين للاستنطاق والتعذيب.. إني حمدت الله على أن الأمور مرت بسلام على الرغم من أن حظي لم يمكني من مسكن في هذا اليوم المشهود ولكني متأكد أنه سيكون يوما هادئا ودون مشاكل ودون عمل إضافي..

قلت: سأنتظر حتى يأتي ليحل لي مشكلتي في هذا اليوم الاستثنائي..

قال: لا تتعب نفسك، سيأتي غاضبا لا محالة لأن اسم صهره لم يرس عليه الحظ في قرعة السكنات العجيبة،

ودون شك سيقيم الدنيا.. فانصرف وعدْ إليه في وقت آخر..وكان قراري صارما لا عيب فيه، على الرغم من محاولات الشرطي الطيب..وإذ نحن نتبادل الكلام، دخل السيد الكوميسار في زيه الرسمي، وما إن رآني حتى أخفى غضبه ورسم ابتسامة تبدو محترمة على شفتيه وقال: دون شك أنك جئت لتطعن في قرعة السكنات التي جرت اليوم بهذه الطريقة السخيفة التي سوت بين جميع الناس.. تعال اتبعني إلى مكتبي..

ولحقته إلى مكتبه وقد ساعدتني هذه الفرصة الذهبية كي استعد لأقص عليه حكايتي.. ولما جلس وراء مكتبه الضخم، وسلمني ورقة بيضاء وأمرني بكتابة الطعن.. ولكنني اعتذرت له بأدب، وأخبرته أني ما جئت للطعن.. فنهض من وراء مكتبه وقال: وجهك لم يكن اليوم حاضرا في ساحة إجراء القرعة الملعونة، ولهذا أجهزة التصوير لم تلتقط صورتك وهذا يعني أنك غير معني بالسكن، وهذا أمر غريب.. من أنت؟ ومن أين جئت؟ وما حكايتك بالضبط أيها الحمار الملعون؟.. قلت بعد أن

استرجعت بعض قوتي، قول الواثق من نفسه دون خوف أو ارتباك: سيدي الكوميسار: أنا حمار مسالم واسطبلي يكفيني ويكفي عائلتي ولسنا في حاجة إلى مزاحمة البشر..

ولما سمع ردي المختصر، حوّل مسار الحديث، وراح يلوم المير - محاولا إقناعي - على القرعة التي لجأ إليها: تصوّرْ أن هذا المير الخبيث لجأ إلى حيلة شيطانية نجّته من غضب الجماهير، ورفعت من شأنه وكنت أتمنى من أعماقي أن تكون هذه هي نهايته، تهجم عليه الجماهير وتجهز عليه في مكتبه.. ولن أنقذه من أيديهم حتى يقطّعوه إربا إربا.. ولكن حدث العكس .. أنا أعرفه جيدا.. إنه غبي وبليد وليس في استطاعته أن يصل إلى الحل المفحم الذي أعجز الجميع عن الاحتجاج والطعن في نتيجة القرعة التي جرت أمام الملأ.. دون شك، له مستشار عبقري هو من دبّر عليه هذا الحل المذهل.. قد تكون سكرتيرته الجميلة.. في عينيها العسليتين سحر

وذكاء خارق.. ولكن، يا لحظها حتى اسمها لم ترس عليه القرعة.. ولكن سأتحرى الأمر وأصل إلى الحقيقة في زمن قياسي ..

قلت: يا سيدي ألست سعيدا بالنتيجة التي توصلت إليها القرعة.. فبغضّ النظر عن صاحب الفكرة.. ألا تحمد الله على أنها جنبت البلدية أعمال شغب وعنف لا يعرف أحد أين تصل شرارتها..

فابتلع ريقه وقال: لا أخفي عليك أني حسدت المير على هذه النتيجة الإيجابية. .ولكني مستاء كيف أدخل على زوجتي اليوم بعد أن تأكدت أن أخاها لم يحصل على السكن الذي وعدتها به مهما كانت الظروف.. بعد أن تفهمت هواجسه حاولت أن أهدئ منها ما استطعت : سيدي إذا كانت حرمك المصون ابنة "فاميليا" ستقدر الظروف، وتنتظر دورة الحظ القادمة، ولا يركبها شيطان الأنانية.. بل تقدر لحظة النصر التي حلت عقدة المدينة التي تأزمت منذ أشهر.. وتجمد

كل شيء من أجل ذلك.. وإنها دون شك ستنسى أخاها وتنظر بعين المواطنة الصالحة إلى الانفراج السلمي الذي أرضى الجميع وترك الناس يعودون سالمين هادئين إلى بيوتهم وهم يرددون: يحيا العدل.. يحيا العدل.. لقد تجنبت البلدية أعمال العنف.. وحمام الدم.. والأفضل أن يقبر كل مواطن أنانيته ويفكر بعقل جمعي ..

قال: صدقت أيها الحمار .. إنّ كلامك يفيض حكمة.. وليت كل أبناء البشر يفكرون مثلك ولكن كيف أقنع زوجتي بهذا المنطق القوي، وهي التي أصبحت تستعمل سلطتي الرمزية لاستغلالها في شتى مجالات الحياة.

وبعد لحظات تجمهر أمام مركز الشرطة بعض نساء المسؤولين اللواتي أصبحن يُسمسرن في العقارات، وهن يطالبن بحقهن في السكن، ويرفضن عملية القرعة البدائية المنحطة التي تسوي بين عائلات المسؤولين وعامة

الشعب.. وتتقدمهم زوجة الكوميسار والمير، وخلفهن مجموعة من الرجال المناصرين لقضايا السيدات المتظاهرات المطالبات بحقهن في السكن، ليس بدافع الحاجة، وإنما بدافع المحافظة على النفوذ والمستوى الاجتماعي الراقي..

بدا القلق على السيد الكوميسار ، ولما سألته عن سبب قلقه.. أخبرني أنه كان متأكدا أنّ زوجته ستخرج إلى الشارع مع صديقاتها متظاهرات أمام المركز.. وهو الآن بين نارين. هل يطبق القانون العام فيقمع المظاهرة أم يناور بالاحتكام إلى قانون حق التظاهر ..

قلت: أيهما أقرب إليك..قال: أحلاهما مر.. وأجدني مشلولا عاجزا عن اتخاذ القرار الأصوب.. والوقت يمر ..

قلت: طبق القانون يا سيدي ولاتخفْ ، مصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة، وبعد تفكير قصير أمر رجاله بتفريق المتظاهرات ثم سألني: هل أنت متحزب ؟

قلت: لا ..

قال: عندما كنت تدرس ألم تشوش على أصدقائك بالتحريض على الإضرابات .. قلت: لا. قال: ولكن صورتك ليست غريبة عني وذاكرتي تحتفظ لك بموقف لن يسمح لي بإمضاء الوثيقة. قلت: القاعدةُ تقول بأنّ المواطن بريء حتى تثبت تهمته.

قال : لا بل المتعارف عليه أن المواطن متهمٌ حتى تثبت براءته .. وبعد لحظات سلّمني الوثيقة وشكرني، لأني ساعدته في اتخاذ القرار الصائب، وطلب مني الانصراف لمقابلة زعيمة النسوان .. بعد أن تأكد من براءتي لأنه رآني في الحلم أقود مظاهرة صاخبة في الجامعة ..

زعيمة النسوان

لما دخلت إلى مقر النسوان ، فتحت لي زعيمة النسوان أحضانها، وكانت تلبس لباسا عصريا أنيقا، وتبسَّمت فبدت أسنانها بيضاء كالعاج ثم قالت لي : دون شك جئت لتوقيع العريضة لتأييد النسوان لأخذ حقهن ..

قلت: يؤسفني يا سيدتي المحترمة، ما جئت مساندا .. "قرّبتْ من حاجب حاجبا" فتحولت ملامحها من ملاك جميل إلى لبؤة شرسة، وردّتْ بلهجة غير أنثوية: يا فتّاح يا رزاق .. إذا، من تكونُ وماذا نريد في هذا الصباح الباكر ..؟

رويت لها حكايتي باختصار وسكتّ، ففاجأتني: وماذا قدّمت لجمعية النسوان حتى نمضي لك وثيقة الشفاعة مجانا، قلت: جمعية تجمع النسوان وتهتم بشؤونهن ، فما محلي من الإعراب وسطهن؟ قالت: هذا كلام حمار

ذكر، متعصب لجنسه، متسلّط على غيره، يحبّ أن يعيش في جزيرة معزولة لا يؤثّر ولا يتأثر .. قلت : بل أحترم الآخرين .. وأحترم النساء وليست لي مواقف معادية لهن، ثم إني من الذين يرون سبب تخلف النساء يعود إلى تخلف الرجال، وليس العكس كما يشاع.. ثم إني أؤمن بأن النساء أكثر تقبلا للتحرر والتطور من الرجال أنفسهم.

قالت: ولكن ما سِرٌّ تأخرك في الزواج، أليس هذا دليل يدينك؟ قلت: لما حضر المكتوب تزوجت .. قالت: ولماذا أخفيت القميص ليلة الدخلة عن أمها وهو حق يثبت للأم عذرية إبنتها التي ظلت لسنوات ترعاها .. قلت: هذه عادة سيئة توارثها البشر، ونحن الحمير لسنا مجبرين على فضح علاقاتنا الحميمية، وان كنا نمارسها في العراء وأمام الملأ ..

قالت: هل ارتبكت ليلة الدخلة ؟ قلت: لا .. قالت: كيف ومعظم العرسان يخافون ويرتبكون في هذه الليلة؟ قلت: الأمر يحتاج إلى الثقة بالنفس، ليس أكثر ..

قالت: ما رأيك في؟ قلت: امرأة مثقفة ـ كما هو شائع ـ، ترأس جمعية نسوان البلد، دون شك أنت في قمة السعادة.. قالت: ماذا تقصد بالسعادة ؟ قلت : القناعة والرضى .. قالت : هل تصدق أني أتعس امرأة في هذا الكون .. قلت: إذا، طموحك أكبر من إرادتك، أحيانا يعيش الناس أسرى طموحاتهم اللامحدودة.. قالت: وكيف ترى مطالب النساء المتظاهرات؟ قلت : إنّها مطالب غير شرعية .. قالت : على الرغم من ذلك أجدني مجبرة على الوقوف معهن والدفاع عن قضيتهن، لأنهن عضوات في الجمعية ..

قلت: المفروض أن تدافع الجمعيات عن الحقوق المشروعة، وليس من المعقول أن تتحول إلى أداة ابتزاز ونهب المجتمع .. قالت: لو كنت مكاني ماذا تفعل ؟ قلت : امشي في سبيلي، ولا أحيد عن المبدأ الذي رسمته لنفسي ولو بقيت وحدي ..

قالت: صدقت أيها الحمار الحكيم .. ما رأيك في عشاء أرتّبه لك الليلة عندي.. وان قبلته قضيت حاجتك،

وان لم تقبله فالويل لك من كيد النساء .. انتصبت واقفا غير مصدق ما سمعت: لا يا سيدتي .. أرجوك .. أنا حمار .. ولكنني عاهدت زوجتي على الوفاء والإخلاص، وأخاف أن تراوديني فلا استجيب، فيشتد غضبك علي، وتفسد المودة بيننا. قالت: لا تقلق .. ستكون الجلسة، لطيفة وسيكون معنا أصدقاء ..

قلت: قبلت ..

على مائدة العشاء قالت لي سيدة النسوان: من أية طينة أنت أيها الحمار ..؟ قلت: أنا من سلالة الحمير .. قالت: بل أنت ملاك .. لأن الملاك فقط لا يضعف .. ولا يخطئ.. والبشر وحدهم يضعفون ويخطئون. سلمتني وثيقة الشفاعة وطلبت مني مقابلة زعيم العمال في الغد وودعتني بحرارة النسوان على شاكلة نساء قديم الزّمان..

زعيم السانتيكا

أمام بناية النقابة وجدتُ العمال والمسرّحين معتصمين، يرفعون شعارات التنديد بالسياسة المتّبعة في إدارة شؤون الاقتصاد، وذلك بتعيين المديرين إداريا، ناهيك عن الرشوة والمحسوبية وإفلاس الشركات والأجور غير المسدّدة لقطاعات مختلفة. وحدهم عمال الإدارات يجوبون الشوارع لرد الفعل وإظهار كذب أشباه العمال المتكاسلين المتمارضين المتهاونين .. عندما اقتربت من البواب قال لي : لاشك انك الحمار الذي يريد مقابلة زعيم السانتيكا .. على الرغم من الظرف غير مناسب .. فانه فضل أن يسمعك لاشك أن لك/ كتاف عراض/ . ولما دخلت عليه كان يرتب أحجار الشطرنج ووجهه مصفر و"عيناه تائهتان في الأفق الغامض" . فقلت في نفسي : ما بال الهمّ لا يغادر المسؤولين؟ لماذا يتشبثون بهذه

الكراسي التي لا تدرُّ عليهم سوى اللعنة والقلق .. وفوجئت به يقول لي: صدقت .. قلت: ماذا تقصد ؟ قال ما تفكر فيه وتسأل نفسك آن تجيبك .. ربما الزعامة وحبّ الظهور والطموح وحب الوصول .. أو المغامرة غير المحمودة العواقب .. عندما تكون في منصب مثل هذا فأنت معرض لكل شيء ويجب أن تحسب الأمور مسبقا، ويجب أن تبادر إلى اللعب قبل أن يلعبوا بك .. ويجب أن تنام إحدى عينيك وتبقى الأخرى يقظة سهرانة ترقب الأمور .. ويجب أن تكون دائما محمي الظهر وإلا طعنوك من الخلف ..لا شيء في هذه المناصب اللعينة متروك للصدفة .. فإما أن تكون فاعلا أو مفعولا به .. قلت معتذرا: عفوا على المجيء في هذا الوقت غير المناسب ، وإني لأشكرك على استقبالك، أرجو ألا آخذ من وقتك كثيرا. قال: كل شيء يهون في خدمة /السنيورة/ .. ونحن في خدمتها لأن أياديها أطول مما تتصور في سرايا الحكم ونفوذها لا يتصوره أحد، ونحن دائما نستعين بها في قضاء مصالحنا قلت: إذا كان ذلك كذلك فأرجو من سيادتكم أن تمضوا تصريحي الآن، وتدعوني أذهب لحال سبيلي.

قال: لا تستعجل .. قبل ذلك يجب أن أتأكد أنّ ملفك نظيف حتى لا تورّطني مع المسؤولين « الفوْق».

قلت: أتمنى أن يكون كذلك، قال : لماذا لم تنخرط في نقابتنا؟ إنّ اسمك غير موجود في قائمة المنخرطين. قلت: لأن النقابة تكون في الأماكن التي تتوفر فيها المصانع ويكثر فيها العمال والإنتاج ويكثر الاستغلال، فتصبح النقابة منبرا للدفاع عن العمال، وتتفاوض باسمهم وتدافع عن حقهم.

أما عندنا فلا مبرر لوجود النقابة فالمصانع موجودة والإنتاج غير موجود وكذلك العمال، لأنهم كلهم مسؤولون "شيفان" ، يرجون لقاء زعيمهم، لينالوا برّه وبُرّه وبِرّه، والقلة الباقية التي تعمل تقتل أيامها في العطل المرضية والتبريرات الواهية.

قال: هذا حكم قاس من حمار متعجرف لا يعرف السياسة الاقتصادية للبلاد. فأرجو أن تسحب كلامك و تخفف من قسوتك في الأحكام. قلت: ماذا يعني وجود

النقابة في شركة صناعية ضخمة على الورق وعمالها يتقاضون أجورهم من خزينة الدولة ويأخذون هبات وعلاوات.. وماذا نقول عن نقابة في مؤسسة رابحة وخيراتها توزع على المسؤولين والفرع النقابي يتفرج، وتباع المؤسسة بعد إعلان إفلاسها طبعا ويشتريها بعض أصحاب رؤوس الأموال الجدد وتحضر النقابة مراسيم البيع لتزغرد وتغني على الصفقة الرابحة.

قال: احترس من كلامك الجارح.. لو لم تجئنا من طرف المعلمة لكان لي معك شأن آخر. قلت : طلبت الصراحة .. فصارحتك لو طلبت غيرها لما نطقت بكلمة واحدة .. صمت قليلا ثم أمرني أن اكمل كلامي فقلت: نقابة تقوم بنيتها على الطبقة الشّغيلة، تنسى هموم العمال وتنغمس في السياسة العقيمة، تصفق لفلان وتولول لفلان وتساند علان..وتصبح بيدقا في أيدي الساسة .. المفروض أن تكون النقابة واعية وناضجة وتعلن عن سياستها وتدعو الآخرين إلى اللحاق بها، وتؤثر في الحكم .. لماذا ؟ هل كان ليش فاليزا أكثر منكم جرأة وشجاعة..

ألستم في مستواه النضالي حتى تصبحوا مجرد قاراقوز لا يسمن ولا يغني من جوع ..

قال : هل أنت مع هذا الطرح .؟ قلت : نعم ولكن قبل كل شيء، لابد من خطوط عريضة .. لابد من منهج متبع.. تكتيك .. استراتيجيا .. لابد أن تقنع القاعدة بالمبادئ المتفق عليها، وتهيئها لتحمل الشدائد والصدمات.. قال: والله إنّك لعلى حق وكلامك صواب وقد بردّت لي قلبي .. هذا ما كان يدور بخلدي منذ مدة ولم استطع أن اتخذ قرارا بشأنه.

قلت: إذا أردت أن تخرج من المأزق وتنجو من حراب العمال وبطشهم غيّر الخطاب وسياسة السفسطة، أقنعهم بخطاب براغماتي، عملي واضرب في العمق ولا تطفُ على السطح، وكن صريحا إلى أبعد الحدود. وحفّز العمال على واجباتهم وكل الأمور تأتي في حينها.

خرج زعيم العمال إلى الشرفة المطلة على الساحة الثائرة حيث آلاف العمال المطرودين كالنمل متراصين وأصواتهم تكاد تزلزل الأسوار، وما إن رأوه حتى صاحوا

جميعا: اهبط إلينا أيها الخائن.. اهبط أيها الجبان، بائع الضمير بالامتيازات والأشياء التافهة، لقد رهنتنا وبعتنا باسم النقابة وجنيت من ورائنا الأثمان الباهظة، وها أنت تطل علينا من برجك العاجي ولا ينقصك سوى أن تبول علينا نكاية .. ماذا فعلنا حتى نصبح مسخرة ومهزلة في هذا القرن..؟ الموت لك أيها الخائن .. اللعنة عليك..

تردّد وكاد يختفي عن الأنظار، لكني شجعته من خلف الستار.. قاومْ، لا تتردّدْ، يجب ألا تعود خطوة إلى الوراء.. وإلاّ كانت نهايتك.. سيكسرون الباب وستجد نفسك وحيدا ولا أحد يدافع عنك.. ستجد أقرب الناس إليك يتنكرون لك .. بل تصبح لهم عدوا بغيظا .. وسيتشفون فيك ويهللون للمصير الذي تلقاه .. وسيبكون ويذرفون دموع التماسيح لأنهم كانوا ضحايا ولم تكن لهم اليد الطويلة فيما آلت إليه النقابة من فوضى ووكر "للمصلاحجية والبزناسية" ..

راح يحاول تهدئة العمال من جديد، واستجاب العمال ليسمعوا آخر كلماته قبل أن يسحق وترمى جثته من تلك

الشرفة، قال: أيها العمال الأعزاء.. لقد أخطأت.. وأخطأتم.. لقد أخطأنا جميعا ويجب أن نتحمل المسؤولية معا.. هناك أطراف خفية تلعب اللعبة القذرة، ولكن يجب أن نحتكم إلى المنطق وليس المجال مجال عواطف ونرفزة .. لابد من حوار بناء وجاد، ولابد أن تكون لنا نظرة واحدة للأمور، وإلا تشتت أهدافنا وتمزقت صفوفنا، فيستطيع كل من هبّ ودبّ أن يشعل فتيل الفتنة بيننا.. أيّها الأعزاء إنّنا في خندق واحد.. ونواجه المصير المشترك، نحن من دونكم لا نساوي شيئا، وأنتم من دوننا لا تساوون شيئا أيضا.. لقد أخطأنا جميعا وحان وقت الإعتراف بالخطأ والإعتراف بالخطأ بداية التصحيح.. أنتم خربتم المصانع ونحن بعنا الرميم وكسبنا من وراء ذلك الكثير، وأعترف للذين كانوا يعملون ومؤسساتهم ناجحة والمسؤولون يأكلون الخيرات.. أنتم مذنبون لأنكم تواطأتم بصمتكم ولم تستميتوا في الدفاع عن شرفكم وعن شرف خبزكم .. ونحن تواطأنا وقبضنا الثمن من مصاصي الاقتصاد الوطني.. "مستثمرو الخوروطو" ..

لست أنا من تطلبون.. لاتصوّبوا حرابكم إلى صدري.. فلست أنا من يشفي الغليل.. ولن أغرر بكم أبدا.. في لحظة صفاء مثل هذه، وعودة الضمير، أقول بصراحة نحن أعداء أنفسنا قبل أن يكون الآخرون أعداءنا.. الذين غرروا بنا وجدونا لقمة سائغة، استغفلونا وضحكوا على أذقاننا.. وهانحن نحبض الريح.. لنعد إلى أعمالنا.. نعمل في صمت .. وليكن شعارنا رفع الإنتاج وتحسينه.. لابد أن نواجه السوق بسواعدنا وليس بالخطب الجوفاء التي لاتسمن ولا تغني من جوع .. لتتحد السواعد ولتخرس الألسنة، كان العمال صامتين يستمعون إلى خطابه الجديد الخالي من فيروس الديماغوجية.. لأول مرة فهموه .. لماذا لم يكن يتحدث بهذه المسؤولية.. وهذا الاهتمام.. هضم العمال كلامه الذي يحمل نبرات الصدق.. وبذور الأمل.. تبادلوا النظرات.. ثم صفقوا تصفيقات حارة .. عاشت السانتيكا.. عاش العمال.. لتخرس الألسنة ولتتحد السواعد..

عاد إليّ يتصبب عرقا ، ولم يصدق أنه مازال حيّا يرزق، ثم قال: نجحنا.. نجحنا ياله من نصر عظيم.. ما أعظم الإنسان عندما يكون في لحظة صدق.. ما أقواه عندما يكون يدافع عن أفكار صادقة.. وما أتفهه حين يدافع عن الأفكار الضحلة، ولكم يبدو مثل حشرة.. فورا وقع لي الترخيص وشكرني ثم اعتذر لي لأني لابد أن أرور أمين الكتّاب ..

أمين الكتّاب

عندما وصلتُ إلى مقر تجمع الكتاب استقبلني شاب بلطافة غير منتظرة : يبدو عليك أنك أديب جديد قادم من الأقاليم البعيدة، ودون شك جئت لتنضمَّ إلى اتحادنا قبل المؤتمر.

- ....

ماذا تكتب؟ القصة القصيرة أم الرواية أم المسرحية أم النقد أم الشعر ؟ وإذا كنت تكتب الشعر، هل تكتب الشعر العمودي الموزون المقفى أم النثري ..؟ أم تكتب الخواطر؟ أم رسائل إلى حبيبتك ..؟ أم أنّك من الذين يكتبون في كلّ شيء؟

- ....

هل مستواك جامعي أم عصامي مثلي .. اجتهدت وقرأت وحدي فأصبحت أديبا مختصا في كتابة الخاطرة

حتى صرتُ رائدها في الوطن العربي، ولا يكاد يذكر مؤرخو الأدب تاريخ الخاطرة حتى يتوقفوا عند اسمي بالشكر والثناء في تطوير هذا الجنس الأدبي الذي لم يكن في تراثنا العربي .. ولم ينتبه إليه قس بن ساعدة أو الجاحظ أو ابن المقفع.

قلت: وهل يجب على من يدخل هذا المبنى أن يكون واحدا من هؤلاء الذين ذكرت والذين لم تذكرهم ..؟

قال حانقا: اسمع يا هذا يبدو أنك حمار مغفل .. اذا لم تكن من النخبة التي ذكرت والتي لم اذكر لضيق الوقت، فالأفضل لك أن تنصرف حالا .. لأنني مشغول بتصحيح مخطوطي الجديد الذي عنونته: تجربتي في كتابة الخاطرة، والذي سيوزع على شبكة الأنترنيت ويوزع في كامل الدول العربية والأجنبية .. ولعلمك أن مؤتمرا دوليا سيعقد في الشهر القادم يحضره أكبر النقاد لدراسة تجربتي الرائدة .. وسيختتم المؤتمر بتوصية إدراج فن الخاطرة في المقررات المدرسية والجامعية ..

قلت: هل تعرف نجيب محفوظ وأمين معلوف وكازانتزاكي و لوركا وديستوفيسكي وهمنغواي.

قال ساخرا : هؤلاء يغنون الأغاني الهابطة ويجرون وراء الربح السريع . .

قلت: والله أنت عبقري زمانك . . .

قال: طبعا ولولا سوء حظي لكنت الآن في مكان أرفع، لأن طموحي أكبر لأصبح في يوم ما أمين الكتاب، بالإنتخاب أو بالإنقلاب.. وأسافر بالطائرة إلى الدول العربية والأجنبية لتمثيل البلد في الملتقيات الأدبية والفكرية .

قلت: أولم يرشحوك لجائزة نوبل بعد هذا الجهد العظيم الذي أفنيت فيه شبابك ؟

قال: والله إنّك وجه خير .. وفَأْلُ حَسَنٌ عَليّ وإذا لم تكن أديبا سنضمك إلى اتحادنا لتكون صديق الأدباء. وسنكون سعداء بصحبتك .

قلت: سأكون صاحب حظ عظيم إذا تمّ ذلك ولكني أريد خدمة بسيطة.

قال: تفضل أنت الآن على بركة الله واحد منا .. وطلبك مقبول مسبقا ..

قلت : أريد مقابلة أمين الكتاب.

قال ـ وهو فاغر فاه ـ : ماذا أمين الكتاب دفعة واحدة ؟

قلت : عندي حاجة يقضيها لي ..

قال: هو مشغول بتحضير مهرجان الفروسية ولا يمكن أن تقابله ..

قلت: ولكن هذه المقابلة ستفتح لي طريقا أنا سالكه، ولابد من رؤيته .

قال: لن تستطيع مهما حاولت.. ولن تراه إلا إذا اشتريت عشر نسخ من كتابي الأخير موقعة بخط يدي.

قلت : موافق ..

أحضر النسخ بسرعة فائقة خوفا من تراجعي وراح يمضيها الواحدة تلو الأخرى.. ثم قبض الثمن عداً ونقدا وحدّد لي الموعد بعد شهر.

استراحة بخجم عقفة العقرب.

لما دخلت على أمين الكتاب كان غارقا في قراءة جريدة فنية منشورة بين يديه، وبعد نصف ساعة رفع رأسه وقال لي :

- برجك واش ؟

- العقرب..

ودفن مرة أخرى رأسه بين صفحات الجريدة وكان عنوانها / الحب كدة /، وكان يتمتم وأنا لا افهم ماذا يقول وفضلت ألا أحرجه بالكلام خوفا من أن يتأثر ليكتب قصيدة غزلية للوطن .

بعد صمت مريب رفع رأسه وقال : عندك الزهر.. الحظ معك اليوم.. تقابل شخصية مهمة، والطرف الآخر في انتظارك ومسافة الألف ميل تبدأ بخطوة..

قلت: أتمنى ذلك وحكيت له حكايتي فلم يصدق، ولما قدمت له الوثائق المطلوب إمضاؤها..

قال لي: يجب أن اختبرك لأتأكد من ولائك وعاطفتك تجاه الوطن. .امرني أن اكتب عبارة /بلادي أحبك. . . ألف مرة، ففعلت حتى كادت يمناي تشلّ. ثم قال لي: غنّ بلادي أحبك. . فغنيت حتى بحّ صوتي وكادت حبالي الصوتية تنقطع. . ثم فتح المسجّل وكان صوت وردة يغني بلادي أحبّك .. وأمرني بالرقص فرقصت حتى أغمي عليّ. . ولما أفقت وجدته مشغولا بمحادثة شخصية مرموقة تخبره بأنه مرشح لوزارة الثقافة بدل الوزير الحالي الذي فشل في ادارة القطاع. . وبعد أن أنهى مكالمته، التفت إليّ وقال: وجهك وجه خير. . أصحاب الظل اقترحوني لأكون على رأس الوزارة ولابد لي من خطبة أثبت لهم أني أهل لها. . أطلق العنان لساقيه داخل المكتب جيئة وذهابا. . ماذا عساني أفعل؟ أقيم حفلا كبيرا يجمع نجوم الغناء العالمي...أنظم ملتقى عربيا لدراسة وتحليل خطب الرئيس وأثرها في التنمية الاقتصادية والإنعاش الاقتصادي. . وعندما سئمت من

حركاته وشطحاته وتجاهله إياي قلت:

سيدي إن مصيري بيدك فأرجوك أطلق سبيلي.. فانتبه إلي كمن يراني لأول مرة.

آه يا وحد الحمار.. أنت الآن في قبضتي وتحت رحمتي ومصيرك مرهون بإشارة مني.. إن أردت الحصول على مبتغاك ما عليك إلا أن تفكّر معي في الخطة التي تظهرني قويا في نظر رجال الظل وأمام المنافسين.. صحيح أنت حمار ولكن قد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر كما يقال.

قلت: لماذا تفكر سرياليا والواقع أمامك ينضح أفكارا ومبادرات، عليك أن تكون أكثر واقعية وبراغماتية.. لماذا لا تجمع كل المثقفين والمبدعين في شتى مجالات الفنون والآداب والعلوم، وتجري مسابقات كبرى وترصد لها جوائز كبرى تساهم فيها أكبر المؤسسات الاقتصادية، ثم تقوم بتصدير تلك المادة المعرفية إلى العالم، أليست المعرفة اليوم عصب الإقتصاد العالمي، وبالتالي تكسب ودّ هذه الفئة المغبونة المحاصرة بأشكال البيروقراطية والوصاية، فتساهم في ترقيتها وتساهم بهذه المبادرة في

فتح مجال جديد لتصدير مواد جديدة خارج المحروقات، وتضمن المليارات من العملة للوطن.

قال :صدقت أيها الحمار.. إنها لفكرة أصيلة وصائبة.. كيف فاتتني..لا..لا.. إنها لم تفتني دون شك إنها كانت ستراودني لو لم تسبقني إليها.. أكيد إنها فكرتي، لم أستطع أن أعبّر عنها إنّه توارد أفكار أليس كذلك..؟ ومادمت فكرت فيها ولم أستطع التعبير عنها واستطعتَ أنت أن تفصح بها فإننا مشتركان فيها.. لا بل أنا سبقتك إليها بحكم مركزي ومكانتي وثقافتي ولهذا فهي فكرتي الأصيلة ولابد أن أحفظها في ديوان حقوق المؤلف.. لا يمكن لأحدٍ أن يصدق أنّك أيُّها الحمار تستطيع أن تأتي بها. سأعطيك حقّك كاملا. وثيقة الشفاعة وأتركك تمضي لحالك وفعلا كان منتشيا فوقّع لي الوثيقة.. وقال لي: أنت الآن قاب قوسين أو أدنى من قصر الحاكم.. أطرق باب حضرة الجنرال ولا تخف..

حضرة الجنرال

قابلته دون رسميات، كان جالسا وراء مكتبه وعلى صدره النياشين البزاقة. قال وفرحة غريبة تغمر محياه: هل جئتنا بأخبار هامة تكشف عن مكان هؤلاء المتمردين؟ قـلـت دون أن أفـهــم عـلاقــتــي بـهـؤلاء المتـمـرديـن: لا ياحضرات.. قال وقد تبدلت ملامح وجهه فجأة: ومن سمح لك بالدخول إذا لم تكن تعرف مكان المتمردين؟ قلت: عن أي متمردين تتحدث ياحضرات؟ قال: يبدو أنك تعيش خارج الوطن ولهذا لا تعرف شيئا عمّا يجري داخل وطنك، وهـذه تـحـسب عـلى مـواطـنـينا الذيـن لا يشعرون بحس مدني تجاه وطنهم، فلا تهتزّ قلوبهم لجرائم المتمردين. قلت: اسمح لي ياحضرات.. دون شك هناك لبس وسوء تفاهم.. وزويت له حكايتي. فقال غاضبا: هل أديت واجبك الوطني؟ قلت نعم ياحضرات. قال: ولم تخلفت عندما استدعيت للواجب في جيش

الاحتياط.. قلت: لم تصل دعوتكم سيدي. قال: دون شك أنّ تحرياتنا كشفت مواقفك المعادية للجيش وأثبتت تعاطفك مع هؤلاء فجعلتنا نحتاط ولا نستدعيك.. قلت: عن أيّة مواقف تتحدث ياحضرات؟ قال: أنت تكره العسكر.. وتتهم جنرالاته بتهم خطيرة .. بينما هم من حمى الوطن والنظام الجمهوري من المتمردين.. قلت: هذه الاتهامات تطالعنا بها الألسنة كل صباح في المقاهي وكذلك مانشيتات الصحف وليست سرا، أمّا المتمردون فاسمح لي ياحضرات أن أوضح وجهة نظري في الموضوع: اعلم أنّه ما من أحد يتمرّد على قانون إلا ويكون الخلل في القانون نفسه، فأولى الخطوات الّتي يمكن أن تتخذ كإجراء وقائيّ، أن يُعاد النظر في القانون نفسه، لمعالجة الثغرة التي غذّت التمرد.. ضرب حضرة الجنرال مكتبه بقبضته الخشنة فكاد يقسمه نصفين ثم قال : قوانيننا معدة على أسس دقيقة ولا يمكن أن نعيد النظر فيها لمجرد أنّ مجموعة ترفض الانصياع للأغلبية. قلت: ياحضرات، قد يكون رأي واحد من الذين لا يعجبهم القانون المتعارف عليه، أفضل من قطيع كامل

ينصاع للأوامر بسلبية ولا يجتهد بتفكيره ولا يحاول تجاوز غريزته.. ليس كل من لا يفكر مثلنا ضدّنا بالضرورة.. أحيانا نحتاج إلى رأي مخالف لنعرف أنفسنا أكثر. ولهذا فإن الرأي الآخر يجب أن يكون دائما حاضرا بيننا، وإذا لم يوجد، علينا أن نوجده لحفظ التوازن.. من الخطأ أن نقضي على الرأي المخالف بالرصاص. إنّ ذلك من خطأ السياسات الشمولية الفاشلة.. إنّ محاربة الفكرة بالرصاص معنى ذلك الخوف من خطورتها وصوابها، والإقرار بخطورة الفكرة معنى هذا أنها تحمل نقيضنا، وأنها بإمكانها تحقيق وجود مختلف عنا، مستقل بذاته وذلك الوجود ليس سيّئا دائما.. قال: كأنك واحد منهم، أو تساندهم .. ؟ قلت أنا لست معهم . قال : أنت إذا معنا وضدهم . قلت: لست بمعكم ولست ضدهم .. قال: أنت مع من؟ قلت: أنا معي.. ولست ضد احد .. اختلف أخالف الآخرين ولا احب أن أتماهى مع أي كان .. قال: أنت تقرّ بخطئنا، بلجوئنا إلى القوة لإرجاع المارقين إلى الصف؟ قلت: أنا لا أحكم .. إنما التاريخ وحده يحكم.. أنا أصف الوقائع كما هي.. دع المخالف يحدّد موقفه

كاملا.. لتكتمل شخصيته حتى يستطيع التعبير عن نفسه ومطالبه، حاولْ أن تفهمه.. تقرّبْ منه أكثر.. حاورْه.. لا تتجاهله.. لا تحط من أفكاره وقدره؟ أدرس أسلوبه.. أهدافه.. أتباعه، اقتبسْ منه.. بدّد الظروف التي أوجدته .. احرث التربة التي نبت فيها.. إنّك تستطيع أن تقمع الرأي الآخر بالقوة والرصاص، ولكنك لن تستطيع أن تقضي عليه إلى الأبد..هل جربنا مقارعة الفكرة بالفكرة.. القوة منطق الضعفاء.. والجدل منطق الأقوياء.. قد تتحول القوة إلى ضعف، لكن الجدل.أبدا لن يضعف.. قال: هل تعني وقف ملاحقة المارقين إلى الجبال؟

قلت: سيكلّف ذلك الكثير.. وحربُ العصابات هزمت الجيوش الجرارة عبر التاريخ.. احرث السهول واعتن بها، ستنحني لك الجبال وتمدّ لك يدها.. قال: مرّت سنوات ولم نجن إلا الخراب، سنعوض كلاشينكوف جنودنا بالمعاول، ونستصلح السهول، ونزرع بذورا جديدة، قد تكون النتيجة أحسن ..

وقع وثيقة الشّفاعة وقال لي: هذا باب الحاكم أُدْخُلْ.

في بلاط الحاكم

مشيت مدة سنة ولم يعترض أحد طريقي حتى وصلت إلى قصر الحاكم فقابلني الحاجب وما إن سلمته وثيقة الشفاعة حتى رحب بي بحرارة غير متوقعة، وقادني إلى رئيس الديوان، فرحب بي ترحيبا حارا وقدم لي عصيرا باردا ثم أخبرني أنّ الحاكم في انتظاري ..

لما دخلت على الحاكم في بلاطه وجدته جالسا على حصير وحوله الوزراء والمستشارون يلبسون البياض يرتشفون كؤوس الشاي المنعنع، وقد بدا على بعض من عرفتهم، القلق والارتباك.. وراعني إذ رأيت منصة ضخمة علق فوقها حبل مشنقة، فارتبكت لأنّ في الأمر إنّ..

أمرني الحاكم أن أتقدّم منه أكثر وأجلسني بقربه.. حمدت الله على أن الأمور في القمة ليست معقدة كما في القاعدة.. وبعد أن قدم لي الشاي قال لي :

هكذا اذا سيادة الحمار المحترم تريد تأليب شعبي عليّ؟

قلت متعجبا : كلا يا سيدي الحاكم، هذا لم يكن في نيتي أبدا، ولا كان من ضمن برنامجي..

قال : أنت تراوغ.. والأحسن لك أن تعترف وتقدم الاعتذار وإلا كان مصيرك الهلاك..

قلت: يا سيدي الحاكم لقد غامرت بحياتي.. وأنكرت ذاتي في سبيل خدمة الآخرين، وتحمّلت المصاعب من اجل مقابلتكم..

صاح صوت من الخلف: ليشنق هذا المتمرّد ..

وقال آخر : ليرجم اللعين..

وقال آخر : ليحرق هذا الحمار الدجّال ..

وتدخل القاضي بوقاره واستأذن الحاكم قائلا : سيدي الحاكم، إنّه لا يجوز محاكمة أيّ كان ولو كان حمارا في بلدنا الديموقراطي حتى تثبت إدانته..

وتعالت الأصوات: الموت للحمار.. الشنق له. الحرق له ..

قال الحاكم: إذا، فلتكن المحاكمة العادلة ..وليكن حكم القاضي فيصلا

قال القاضي: بإمكانك أن تدافع عن نفسك أو تختار محاميا يدافع عنك..

وتقدم محام بدين في زيه الرسمي وبعد أن استأذن الحاكم والقاضي قال : أيها السادة .. أنا أتطوّع للدفاع عن هذا الحمار إلتفت إليّ القاضي، وقال :

هل تقبل أن يدافع الأستاذ عنك أيها الحمار ؟ قلت : شكرا للسيد المحامي على تطوعه للدفاع عني ولكني لست أدري إن كان سيدافع عني أحسن مني ..

طلب القاضي من الحضور أن يختاروا من يتحدث باسمهم ، فاختلفوا فيما بينهم فقلت لهم :

اتركوا أنانية البشر وعودوا إلى قيم أجدادكم وستجدون من ينوب عنكم .

فقال حمار طاعن في السن : فلنحتكم إلى قيم الحمير الأصيلة .. فليتقدم اكفأ حمار يستطيع القراءة وله قدرة على الخطابة ولتصمت كل الألسنة الطويلة.. وتقدم حمار وقدم نفسه، فلم يعترض عليه أحد.. فتوجه إلى القاضي : سيدي القاضي .. إننا معشر الحمير نتبرأ من هذا الحمار المتعجرف المغرور .. إنّه يقف في وجه مجتمعنا ولا يريده أن يتطور، ولذلك يسخر من أحزابنا وجمعياتنا وأعيادنا التي أخذناها عن البشر.. ولهذا نطلب منكم أن تسلطوا عليه عقوبة الإعدام..

ـ لم أصدق أنّ قومي وقفوا مني هذا الموقف السلبي.. إلتفت إليّ القاضي وقال: هل سمعت .. أنّ قومك يطلبون لكَ الإعدام ..

قلت مادام قومي تنكروا لي، لعلّ هؤلاء البشر يشفعون لي، وقد قدمت لهم يد المساعدة، والتفتّ إلى السيد المير لعله يشهد لي بفضل وينقذني من المشنقة فقال: أنا ليس لي دليلَ ضدك ولكني منتخب، ولن أكون

ضد إرادة الحمير الذين تشبعوا بقيم البشر وصاروا مثلهم.. لن أكون ضد إرادتهم..

بلعت خيبتي وقلت : السيد الكوميسار، مسؤول الأمن، قد يذكر لي فضيلة.

ـ أنا مسؤول عن أمن وسلامة المواطنين حميرا كانوا أم بشرا، ولهذا لا أستطيع أن أشفع لحمار تمرّد على قومه وتورّط حتى أذنيه..

والتفتّ إلى رئيس النقابة وقلت له: وأنت يا سيدي؟

ـ أنا أمثل العمال الكادحين من أجل بناء الاقتصاد وأنت أيها الحمار ترفض الانخراط في النقابة وترفض دفع الاشتراك فكيف تريدني أن أدافع عنك ؟

والتفتّ إلى أمين الكتاب وذكرته بالخدمة التي قدمتها له.

فقال: أنا أمثل النخبة المستنيرة، وأنت أيها الحمار تريدني أن أدافع عنك، ليس هذا من اختصاصي.

والتفت إلى حضرة الجنرال لعل قلبه يعطف عليّ فقال لي: أنا امثل العسكر ومهمتي لا تسمح لي بالتدخل في الشؤون المدنية..

بقي شاهد واحد.. امرأة وحيدة.. زعيمة النساء، وسيدتهنّ .. لم استطع أن اسألها.. لكنّها بادرت بنفسها وقالت : سيدي القاضي.. هذا الحمار..صادق في أقواله.. وأنا أشهد له بالصدق.. والنبل.. والاستقامة.. لم يطلب شيئا لنفسه.. وإنّما حاول أن يحمي قومه من الانحراف والانحلال.. وقدّم لهؤلاء المسؤولين الذين ينكرونه اليوم أفكارا جميلة أنقذتهم من ورطاتهم وقدمت حلولاً عقلانية للبشر.. فمن العار أن ننكر دوره في ترقيتنا، ونتركه يذهب إلى حبل المشنقة وحيدا..

والتفت القاضي إلى المسؤولين فطأطأوا رؤوسهم مؤكدين ما قالته سيدة النساء.. ثم صاحوا جميعا :

إنّه حمار خير.. كان يريد الخير لقومه الحمير، وقدم الخير الكثير للبشر.. نشهد بأفضاله علينا.. ونطلب منه الصفح..

والتفت القاضي إلى بني جلدتي الحمير وخاطبهم: وأنتم أيها الحمير هل مازلتم تطلبون له الموت ؟

شعر بنو جلدتي بالخيبة بعد أن شهد البشر بأفضالي وفضائلي، وصاحوا جميعا: إنه زعيمنا.. له منا ألف تحية.. ألف عذر ..

قال القاضي: بعد سماع الشهود الذين شهدوا لصالح الحمار النوميدي وبرأوه من التهّم المنسوبة إليه.. حكمت المحكمة بالبراءة لصالحه..

والتفت إليّ الحاكم وقال: هل تقبل أن تصبح مستشاري الخاص.. وتروي لي ما تعرفه من تجارب الأجداد ؟

قلت: قبلت يا سيدي الحاكم، بشرط أن توفر لي هامشا من الحرية..

قال الحاكم : لك ما تريد ..

مقدمة اللاحق

إعلم أيها الحاكم الكريم :

في البدء كان الرجل الحر وكانت العشيرة، الدولة، وكانت الديموقراطية أسلوبا لنظام الحكم، يسمح بالتداول على السلطة، حيث لم يكن هناك الملوك والسلاطين والانقلابيون و"الشوكر" الذين يغتصبون الإرادة الشعبية، بأفعالهم الدنيئة.. وكانت القبيلة هي التي تنتخب رئيسها بنفسها دون قيود أو ضغوط خارجية أو تزوير داخلي، ولابد للرئيس من مزايا خاصة تميزه عن غيره من المواطنين. وإلا ما معنى أن يرشح الرئيس لحكم القوم وهو فارغ الرأس وقصير اليدين ..

ولم تكن المرأة في دولة العشيرة مهانة مغيبة مهمشة تصلح فقط بيولوجيا لإنجاب النسل، أو صوتا انتخابيا يحسب له ألف حساب يوم الانتخاب، بل كانت مواطنة حرة لها كل الحقوق والواجبات، و كانت جزءا لا يتجزأ من المجتمع، لها صوتها ولها كلمتها ومشورتها وكثيرا ما تنسب القبيلة إلى امرأة وهذه زناتة صارت مثلا، وكثيرا ما تحكم المرأة قومها وهذه الكاهنة مثل آخر.. قبل أن ينفتح المجتمع ويسمح للويزة حنون بالترشح للرئاسيات في الألفية الثالثة..

وكانت ملابسهم المتميزة: البرنوس والقشابية والقنور وكان طعامهم الكسكس والدهان الحار والبلغودة المنقحة والجراد أيام طاعون الجوع..

وكانوا يعبدون مظاهر الطبيعة كالأجرام والكواكب، والثور والكبش والتيس والأفعى والبوم والحمام والسلحفاة والضفدع والقرد والنهر، وكذلك

الكهوف والمغارات بسبب ما يعتقدون من حلول الأرواح بها.

وكان الرب "آمون" أحد آلهة المصريين وهو على صورة كبش ومازال الرجال الأحرار المسلمون يحتفظون بقرونه بعد كل أضحية اقتداء بسيدنا إبراهيم، وتعلق في الأشجار والسقوف للتبرك ولتقي الأهل من الشرور والمصائب..

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

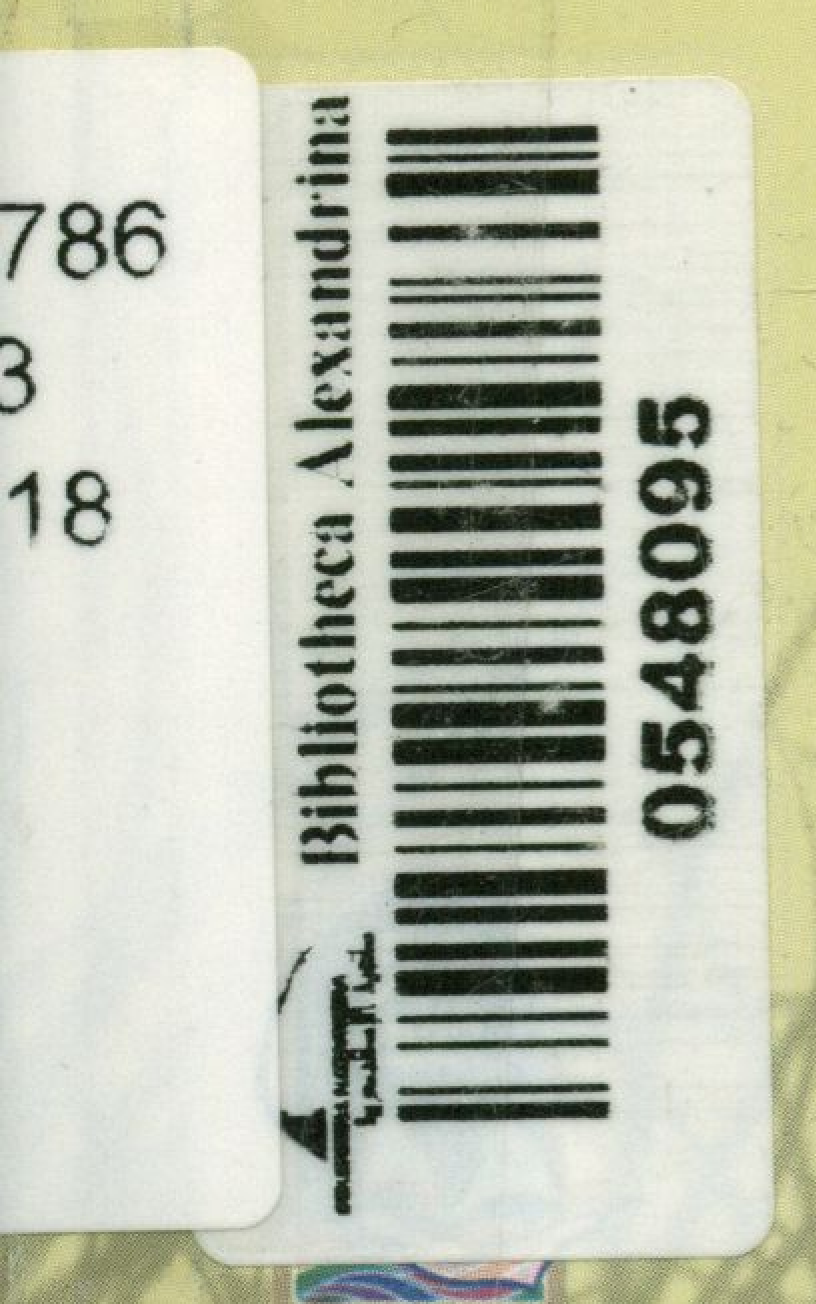
وحدة الرغاية، الجزائر

2007

Achevé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaia
- Algerie -

Bp. 75 Z.I. Réghaia Tél. : 021 84 85 98/84 86 11

أنا مجرد حمار بسيط و متواضع لا حول ولا قوة لي، تشبعت بقيم وعادات
آبائي الأوفياء الذين يؤدون واجبهم في صمت ولا ينتظرون شكر أحد..
ولا ينتظرون مدح أحد.. أعمل في صمت ولا أحب المدح ولا أحتقر الآخرين..
وأعطي كل ذي حق حقه..




ISBN:978-9961-62-681-8
9 789961 626818
Conception: Medina Kermiche